الفصل الرابع

عقيدة اضطهاد المرأة فى الثقافة العربية والإسلامية وعقلية التمييز ضد المرأة

دعونا فى البداية نرجع إلى الجذور والأصول فى تاريخ مفهوم الإنسان (رجل وامرأة) فى الثقافة العربية والإسلامية، يعود مفهوم الإنسان فى الإسلام إلى قصة خلق آدم وحواء فى القرآن. القصة التى ترد فى سورة البقرة الآيات ٣٠ ـ ٣٤ والتى تقول ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤)﴾ ولهذه القصة ثلاثة معطيات مركزية: الأول: القرار الإلهى باعتبار الإنسان خليفة الله فى الأرض. المعطى الثانى: إعطاء الإنسان المعرفة الكافية ليتفوق على الملائكة؛ والثالث: الطلب إلى الملائكة الذين يسجدون الله وحده أن يسجدوا للإنسان تكريمًا وتحت طائلة الخروج من رحمة الله. تشكل هذه المعطيات أساس التصور الإسلامى والعربى للإنسان وتعززها مجموعة آيات وأحاديث كثيرة يستوقفنا منها الآية ٧٠ من سورة الإسراء: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾. وهى آية تطلق التكريم للجنس البشرى دون تمييز بين مؤمن وكافر؛ مسلم أو غير مسلم؛ رجل أو امرأة؛ عربى أو أعجمى. والآيات الأولى من سورة الرحمن التى تقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤)﴾ فى فضل المعرفة العقلية على الإنسان وقيمتها فى تكريمه وخلافته،

obeikandi.com

ومن المهم استعادة هذا التصور كون المدرسة (الأرثوذكسية) في الإسلام قد حرصت على تأكيد صورة الإنسان المطيع الخانع الطائع. وناهضت صورة الإنسان صاحب الإرادة والمسئولية التي أكد عليها المعتزلة وبعض الخوارج وصورة الإنسان الكامل التي بلورها ابن عربي، ضمن سيرورة تكوين أيديولوجية الطاعة في الإسلام (التي تبدأ بالتصور الديني والسياسي، وتنتهي في بقاء المرأة في بيت زوجها) عبر القرون الأولى التي شهدت مع التغييرات العميقة التي رافقت التوسع العسكري السريع للخلافة الإسلامية تراجعها ما في دور المرأة وحاجة ملحَّة لبناء مذهب على مقاس الخلافة يشكل التعبير الرسمي للإسلام. لقد ناقش الباحث «حسين العورات» نقطة جوهرية في التصور الإسلامي الأول لعلاقة الجنسين؛ وهو ينطلق فيها بدءًا بالخطيئة الأولى التي ترد في القرآن ثلاث مرات:

١ ـ فقد جاء في سورة البقرة: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٧].

٢ ـ وجاء في سورة الأعراف ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٣].

٣ ـ وجاء في سورة طه ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ وقد لاحظ الباحث أن مسئولية «الخطيئة الأولى تقع على الذكر والأنثى معًا في الآيتين؛ على آدم وزوجته كلاهما؛ وإنها تقع على آدم وحده في الآية الثالثة. بمعنى أن آدم يحتمل مسئولية هذه الخطيئة بمقدار أو أكثر من حواء. فليست المرأة غاوية ولامخادعة ولا أخرجت آدم من الجنة، كما يقرر الفقهاء معتمدين على عقائد إبراهيمية وقصص شعبية سبقت الإسلام. إذن لا يساوي النبي محمد (ﷺ) والقرآن فقط بين المرأة والرجل في الخلق والطبيعة والمسئولية (الميثولوجية والواقعية)؛ وإنما أيضًا في تبادل الحاجة والتساوي في صفة التفضيل الوحيدة في الإسلام: التقوى. ورغم هيمنة التصور الأبوي على مكة؛ وجدت النساء في الدين

الجديد حليفا فى وجه الصلافة الرجولية التى عاشتها مكة إبان الإسلام. فلا غرابة أن تكون خديجة زوجة الرسول (ﷺ) أول من اعتنق الإسلام وأول من استشهد من أجل الدين الجديد كانت سمية بنت عمار إن ولادة الإسلام فى مكة لم تكن بالإمكان أن تجعل المسلمين الأوائل أنصارا للمساواة بين الجنسين. ولعل الاستثناء الأهم هو الحياة الشخصية حاضرة وفاعلة للمرأة فى المجتمع والحياة ووفية فى السراء والضراء نصرت محمد بن عبد الله يوم كان وحده؛ وأغنته يوم جاع؛ وصدقته عندما كذبه القوم؛ وناصرته يوم لاحقه الرجال. لو تركنا النصوص الدينية وعدنا للحياة الإسلامية الأولى؛ لتفاجئنا بالدور المهم للمرأة فى الدعوة والنقاش الدينى والسياسى والمقف الإسلامى من النساء. ولدنيا الشعور بصراع حقيقى بين إمتيازات للرجال كانت قائمة حرص المسلمون الرجال على الإحتفاظ بها وبين مقاومة نسوية تحاول أن تنتزع مكانها تحت شمس التغييرات رافقت نشأة الإسلام. وإن كان عهد النضال السرى والعارضة قد أعطى للمرأة اعتبارًا كبيرًا لمشاركتها فى الدعوة وحمايتها للنبى (ﷺ) ومشاركتها فى الهجرة للحبشة ومشاركتها فى بيعة النساء بيثرب؛ فقد تراجع دور المرأة موضوعيًا مع عسكرة الحياة الاجتماعية بزيادة الحروب والغزوات فى المجتمع الإسلامى الأول (٢٧ غزوة وسرية حربية منذ الهجرة إلى وفاة الرسول (ﷺ) وقيام شكل للسلطة السياسية منذ معركة بدر. مع الهجرة إلى المدينة؛ عرف مسلمو مكة تقاليد أكثر ليبرالية فى علاقات الجنسين. يروى مسلم فى صحيحه عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «كنا معشر قريش؛ قومًا نغلب النساء. فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم». وهناك عشرات الروايات حول المرأة ومشاركتها النقاش والحياة العامة، ولنا أن نتساءل: من يستطيع أن يتصور، مع الخطاب الأصولي من النساء في المجتمع الإسلامي الأول أن عددًا من أوائل المسلمين يعرب عن رغبته في الزواج من نساء يمارسن البغاء علهم يؤمنون وأد العيش من عملهم «إلى أن يفنيهم الله» حسب تعبير الإسلاميات، ليكون من أولي التحديات في تحريم الزواج من زانية أوزان في عهد مبكر كما يذكر الطبري في تفسيره، ويتطلب وصف هذا الحدث آية قرآنية.

أقرت الآية ٣٤ من سورة النساء مفهوم القوامة الرجالية السائد: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾. ولم تلبث هذه الآية أن أصبحت قاعدة بناء مفهوم الطاعة فيما يتجاوزها بكل المعانى؛ عوضًا عن

أن تبقى المعبر عن روح حقبتها ورحلتها. فحتى فى عهد النبى (ﷺ)؛ كانت هذه الآية موضوع احتجاج النساء. وقد توجهت إحدى المناضلات المسلمات إلى النبى (ﷺ) تسأله عن قضية المساواة كموفدة عن بنى جنسها» أنا وافدة النساء إليك؛ إن الله قد بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك؛ وإننا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد فى بيوتكم؛ وحاملات أولادكم؛ وأنتم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعة؛ وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله؛ وإن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا أو مجاهدًا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم؛ أفنشارككم فى الأجر والثواب؟».

* لمحات عن وضع المرأة العربية فى التاريخ العربى الإسلامى:

رغم استمرار تغييب المرأة عبر الأيديولوجية والواقع؛ كانت هناك باستمرار مقاومة نسوية لعملية التهميش والإبعاد. وقد اشتركت النساء فى كثير من العصور الإسلامية المبكرة فى القتال والتعبئة والإنتاج والحياة الأدبية والسياسية.

فقد كانت حقبة الازدهار العباسى بحق حقبة الصراع بين الدينى والمعرفى؛ المحافظ والمتنور؛ المجتهد والمقلد؛ ولم يكن نضال النسوة فى صفوف المعارضة الخارجية بكافٍ لكسر هذا التوجه نحو عزل النساء، ولعل فى ازدهار الاقتصاد السياسى للإماء ما كسر محاولات خنق النساء فى الحياة العامة لتقود المرأة المثقفة والمحبة للحياة والأدب والفن والشعر إلى صميم هذا المجتمع بعد تكوينها فى مدارس خاصة فى المدينة المنورة وغيرها، وبذلك كسرت الأمة «الهالة» التى أعطيت لعزل وحجب النساء مع بروز دور اجتماعى وثقافى وسياسى كبير للإماء وأكدته سيطرة أبناء الإماء على الخلافة العباسية منذ المأمون وسلمهم لها فى الأندلس منذ قيامها إلى سقوطها وبروز أعمدة الفكر والأدب والعلوم فى أوساطهم. فقد أكد المعتزلة على تعليم النساء، وكذلك فعل معظم المتشيعين لعلى وعدد من المتصوفة؛ فى حين وقفت بعض الفرق ضد تعليمها ومع تعدد الزوجات ونحب فى «رسالة البنات الكبيرة» من كتب الحكمة للموحدين نصًا يطالب بتعليم المرأة الحكمة والدين والعلوم؛ يقول: «التخلف عن حفظ الحكمة هو الذنب العظيم؛ فبحفظ الحكمة والعلم ترتفع درجات المحقين وبإهمالها تعرف الكذبة من الصادقين فتفهمين هذه الرسالة أيتها البنت واجعلنها لعقولكن أممًا واجتهدن فى حفظ الحكمة.. فبحفظ الحكمة والعلم يتميز الأخيار من الأشرار. «ويؤكد الجاحظ مبدأ المساواة بين الجنسين بالقول:

«لسنا نقول ولايقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر؛ ولكنا رأينا أناسًا يزرون عليهم أشد الزراية ويحقروهن أشد الاحتقار ويبخسون أكثر حقوقهن». وكما نلاحظ؛ فقد قادت المرأة العربية اتجاهات سياسية كما كان حال عائشة بنت أبى بكر وغزالة الخارجية وناضلت للسلم، كما فعلت سكينة بنت الحسين بن على وللازدهار العباسى والازدهار الأندلس أفكارًا أساسية حول حرية المرأة ومشاركتها فى الحياة العامة، وقد دافع ابن رشد وابن عربى كلاهما عن حقوق المرأة وكرامتها؛ ومما قال الأول: «لا تدعنا حالنا الاجتماعية نبصر كل ما يوجد فى إمكانات المرأة؛ ويظهر أنهن لم يخلقن لغير الولادة وإرضاع الأولاد؛ وقد قضت هذه الحالة من العبودية فيهن على قدرة القيام لجلائل الأعمال؛ ولذا فإننا لا نرى بيننا امرأة مزينة بفضائل خلقية؛ وتمر حياتهن كما تمر حياة النباتات؛ وهن فى كفالة أزواجهن أنفسهم؛ ومن هنا أتى أيضًا البؤس الذى يلتهم مدننا؛ وذلك أن عدد النساء فيها ضعف عدد الرجال؛ ولا يستطعن كسب الحاجة بعملهن». وقال ابن عربى فى حديثه عن الإنسان الكامل جامعًا فيه بين المرأة ضرورة تواكب الأحكام مع الزمان والمكان؛ وفى ذلك يقول «اعلم أن الحكيم الكامل المحقق المتمكن ترك أنباء الشرق واستفاد منها رواد الإلحاد فى الغرب. مما حمل مشعل المعارف بعيدًا عن العالم الإسلامى كما يقول الكاتب هيثم مناع فى كتابه «الإسلام وحقوق المرأة». فمن جهة؛ غرز استبداد الخلافة الطابع الاستبدادى الأبوى للأسرة وتعزيزه؛ ورغم التواجد الفعلى للمرأة فى الأعمال ذات الفائدة العامة مما تعدى كثيرًا دورها فى تربية الأطفال وطهى الطعام؛ إلا أنه وباستثناء الأرامل والإماء؛ لم يكن للمرأة حق التصرف فيما تنتج من نسيج وصناعات حرفية وأطعمة؛ وكانت فى الريف تعمل فى البيت والحقل؛ تزرع وتحصد وتعد الطعام وتجمع الحطب وتجلب الماء وتنظف البيت وتربى الأطفال. ومع ذلك بقيت أسيرة البنية الاجتماعية ـ الأيدولوجية الأبوية فى تكوينات لم تمتلك الحد الكافى من التفرد، وفى ظل سلطات احتكر فيها القوامة والقرار. وقد تركت الهيمنة العقيدية وهزيمة التعددية فى المجتمع وإقفال باب الاجتهاد وسيادة الطابع العسكرى/ الأمنى للخلافة آثارها على وضع المرأة وعادت لتؤكد على عزلها وخنق وجودها المجتمعى لقرون. ولم تترافق عصور الانحطاط بظلم المرأة وتهميشها وتغيبها عن الحياة العامة فحسب؛ بل ترافق ذلك بتراجع فى الفكر والاجتهاد والعلوم والمكانة الحضارية للعرب والمسلمين.

إشكاليات المجتمع الذكورى العربى وآثارها على المرأة والمجتمع

إن المرأة فى العالمين العربى والإسلامى حققت فى القرنين الماضيين مكاسب غير قليلة؛

رغم المقاومة الشرسة التى يبذلها الكثير من الرجال للوقوف بوجه حصول المرأة على تلك الحقوق. فالمجتمعات العربية والإسلامية ما تزال تعتبر ذكورية بصورة كاملة. وبالتالى فكر هذه المقاومة ليست سهلة بسبب سيطرة الرجال على الدولة والنظم السياسية والتشريعية ووضع القوانين والمراسيم والتعليمات الإدارية والقضاء والقوات المسلحة: أى هيمنتها على السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية؛ وكذلك على الاقتصاد والثقافة... إلخ: ورغم هذا فإن الطلائع النضالية من النساء يشقن طريقهن الصعب وسط مقاومة وعراقيل كثيرة على هذا الطريق؛ وللأسف إن معظم من يصنعون هذه العراقيل أمام النساء هم جمهرة من رجال الدين؛ وليس العلماء منهم؛هم الذكور الذين لا يرغبون أن يروا فى المرأة إلا أداة للاستئناس أو الجنس والإنجاب والطبخ وغسل الملابس وخدمة البيت والذكور فيه؛ وأن لا تكون ندًّا لهم متساويًا معهم ومستقلًّا عنهم فى آن واحد.

لا شك فى أن هناك فوارق بيولوجية بين المرأة والرجل؛ ولكن هذه الفوارق لا تقلل من إنسانية المرأة ولا تضعف دورها ومكانتها فى المجتمع، ولا تقلل من قدرتها وكعادتها على إنجاز المهمات التى تناط بها. ولا يجوز استخدام هذه الفوارق الطبيعية للتمييز بين المرأة والرجل بحجج واهية؛ وإن تعذر عليهم ذلك توجهوا صوب الدين كما سبق أن ذكرت ليستخدموه ضد المرأة؛ ولكنهم فى ذلك يسيئون إلى الدين والمرأة والمجتمع فى آن واحد. أنه أصبح مما لا شك فيه أن المشكلة الأساسية تكمن فى أن الذكور فى المجتمعات الذكورية؛ التى نعيش فى ظلها؛ لا يريدون التنازل عن الحقوق التى اكتسبوها عنوة عبر الزمن على حساب حقوق المرأة؛ وهى التى خسرت الكثير من حقوقها منذ أن بدأ الرجل بالسيطرة على المجتمع وفرض إرادته بالقوة على المرأة والعائلة بصيغ مختلفة. إن هناك الكثير من رجال الدين الذين ينشرون أفكارًا تحمل سمة التخلف والرجعية فى السنوات الأخيرة، والتى تنادى بأن واجب المرأة الشرعى هو تحضير وتقديم الطعام لزوجها والابتسام له عند تناول طعامه والتزام الهدوء عند منامه والعناية براحته وصحته وسعادته. ويقصد هنا بلا شك إرضاء شهواته الجنسية ثم إنجاب الأطفال والعناية بهم وخدمتهم.

كما أنه للأسف؛ يقتنع الكثير من الرجال العرب والمسلمين بهذه الأفكار لأنها توافق هواهم؛ ولا يفكرون ولو للحظة واحدة أن هذه الأفكار هى من أحد أهم أسباب تخلف العقل والمجتمع العربى والإسلامى. إننى أستطيع أن أؤكد أننى قد اطلعت على الكثير من آراء رجال الدين السلفيين الذين يؤكدون باسم الإسلام والشريعة إن من يطالب بالمساواة بين

المرأة والرجل هو رجل كافر وخائن لدينه؛ بل يهاجمون بضراوة كل من يتبنى الدفاع عن حقوق المرأة من الرجال المتنورين. ويعتمدون فى ذلك على نظرية تفوق الرجل على المرأة (الرجال قوامون على النساء) ولا يجوز طلب المساواة؛ وإن معشر البشر ليس مساويًا لمعشر الفيلة مثلًا حيث تعود أنثى الفيل قطيع الفيلة.........!!

إن المرأة فى مجتمعاتنا العربية لا تتعرض لاضطهاد الذكور فى البيت والعمل والشارع فحسب؛ بل وتتعرض إلى اضطهاد الدولة ورجال الدين فى آن واحد.

ويتجلى ذلك في التشريعات والقوانين وما إلى ذلك من دساتير حاكمة إن أي انسان عاقل وسليم الطوية حين يستمع إلى أفكار مماثلة في خطب دينية او مقالات وأحاديث يمكنه أن يؤكد دون تردد بانها لا تمت إلى الدين بصِلة وأنها تجسد بؤسًا وتخلفًا فكريًا وسياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، كما أنها تجسد تدنيًا حضاريا وغيابًا للتنوير الديني والاجتماعي لدى هؤلاء الخطباء وكتاب المقالات. إن مستوى ومضمون الفكر والمقارنات التي يطرحها هؤلاء الرجال يعبر عن واقع نسبة عالية من الناس في المجتمعات في الدول الإسلامية والعربية، وواقع الضحالة والتخلف الذي نناقشه بالبحث في أسبابه وسبل تغييره بيندفتي هذا الكتاب. إن هذه الثقافة المتدنية التي تنتشر في منطقتنا والتي تتمثل في هذه الافكار والتصريحات تقوم بتعبئة الناس البسطاء ليكونوا جبهة واحدة ضد المطالبة بحقوق المرأة، بل حتى تعبئة المزيد من النسوة ليكن ضد حقوقهم المشروعة والعادلة.

لا يريد الكثيرون من متدني الفكر في مجتمعاتنا العربية والإسلامية أن يتذكروا القول الصادق الذي نطق به عمر بن الخطاب حين قال «كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» وكلمة الإنسان أو الناس تعني النساء والرجال معًا وليس الرجال فقط من ناحيتي اللغة والمضمون. إن الإشكالية الكبيرة تكمن لا في مثل هذه الجمبرة المتخلفة من رجال الدين الذين يفسرون الدين علي هواهم ووفق مصالحهم الذكورية فحسب، بل وإن العيب يكمن في الحكومات التي تسمح وربما تؤيد بحرارة مثل هذه الطروحات وتسعى إلى تكريس مفاهيمها البالية في المجتمع وفي الثقافة العامة للإنسان، إن المشكلة التي تعاني منها مجتمعاتنا، والمرأة بالخصوص تكمن في الآتي:

١ ـ التخلف الاقتصادي وسيادة العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية والزراعية بأساليبها وأدواتها البالية وعلاقتها المتينة بالحياة القبلية والبداوة الفكرية والسلوكية.

٢ ـ تخلف القطاع الصناعي وضعف الطبقة البرجوازية والفئات المتوسطة والطبقة العاملة وتأثير ذلك على استمرار تخلف الوعي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فالاقتصاد والمجتمع وجهان لعملة واحدة.

٣ ـ تراجع دور علماء الدين المتنورين أمام تنامي دور رجال الدين غير المتنورين والتفسير غير العقلاني للنصوص الدينية، للقرآن والسنة، وتراجع الاجتهاد في القضايا الأساسية المرتبطة بحياة الناس. إن فكر الرجل مثلًا متنشر كما سبق أن أوضحت سابقًا، ويتجلى لدى بعض القوى الإسلامية السياسية المتطرفة، لا في استخدام السيف والبندقية وكاتم الصوت والقنبلة والفخاخ فحسب، بل وباستخدام الكلمات والتفسير غير الواعي للآيات القرآنية والسنة والنبوية.

٤ ـ البطالة الواسعة التي تشمل نسبة عالية من الرجال ونسبة أعلى من النساء. والمرأة لا تمتلك في مثل هذه الحالة استقلالها الاقتصادي، بل هي تابعة اقتصاديًا للرجل الذي يجلب المال إلى البيت، وما عليها إلا خدمة جالب المال.

دعونا لا ننسى أيضًا أننا كمجتمعات عربية تملك تاريخًا ثقافيًا وارثًا فكريًا عميقًا متأصلًا في جذور اللاوعي العربي والإسلامي عن فكرة أن المرأة عورة يجب تغطيتها دائمًا أو التخلص منها؛ وذلك منذ أيام الجاهلية الأولى فى شبه الجزيرة العربية؛ ولذلك كانت تدفن الطفلة الرضيعة وهى حية لكى لا تجلب العار إلى أهلها عندما تكبر؛ كانت المجتمعات العربية تنظر إلى الرجولة على أنها امتياز وشرف؛ وإلى المرأة على إنها مهانة وضعف؛ كانت هذه النظرية الدونية والعنصرية هى السائدة؛ ليس فقط فى شبه الجزيرة العربية؛ بل وفى أجزاء كثيرة من العالم القديم، ومازالت مستمرة فى بعض مجتمعاتنا العربية. لقد طالبت جميع الديانات السماوية بالمساواة بين المرأة والرجل؛ ولكنك تجد كما ذكرت من قبل؛ حتى الرجل المتدين الذى يطبق جميع أمور دينه عندما يتطرق إلى موضوع المرأة؛ تجده يترك كل القيم السماوية ويعود إلى الجذور الجاهلية التى فى داخله التى لايمكن أن يتخلص منها؛ ويتحول بالتبعة فى تلك النقطة إلى إنسان جاهل؛ وهذا نفسه حال بعض المثقفين العرب؛ تجده مرنًا فى جميع القضايا المطروحة أمامه، ولكن عندما تطرح قضية المرأة تجده يتحول إلى إنسان لا يملك من الثقافة الشيء البسيط. هذا ولم تحاول المرأة العربية الخروج من واقعها المرير على وجه العموم؛ واستمرت عمليًا بالركوع أمام الرجل واكتفت بالمرتبة الثانية ولم تخرج خارج الإطار الذى رسمه الرجل. فقد وضع الرجل عقوبات قاسية للمرأة وهناك مجموعة من الرجال الذين بحثوا عن تغيير حال المرأة ولم

تكن ضمن هذه المجموعة النساء؛ بينما فى نفسه الوقت كان التأييد واضحًا من النساء لانتشالهم من وحل الواقع الذى غرقن به منذ مئات السنين.

رؤية جديدة لتغيير مفهوم العقل العربى عن حقوق المرأة

إن قضية تحرير المرأة والمطالبة بحقوق المرأة العربية مرتبطة ارتباطًا جوهريًا وأساسيًا بمتطلبات التتخطيط الإستراتيجي بعيد المدى لنهضة المجتمعات العربية؛ والذى يعتبر ذلك ضرورة حضارية لا غنى عنها ولا تراجع عنها من أجل تحقيق نهضة حقيقية شاملة فى المجتمع. أما إن ارتبط نهج التعامل مع حقوق المرأة فى المجتمع العربى بالتكتيكات السياسية الوقتية العابرة؛ فإن قضايا حقوق المرأة العربية سرعان ما سوف تنتكس وتتراجع مع تراجع ذلك المؤثر الخارجى «الذى أعطاها أولوية معينة فى مرحلة تاريخية معينة. وعلينا أن لا ننسى أن الحديث عن مفهوم تحرير المرأة العربية»؛ والنهوض بها وإنصافها وإقرار حقوقها؛ ومحاولة الخروج بها من «عصر الحريم الاجتماعى والسياسى «وقيود» الأسر الاجتماعى «التى هيمنت عليها منذ قرون وتكرست فى عصر الحكم العثمانى الذى امتد زهاء خمسة قرون؛ هو حديث مطروح فى الساحة الثقافية والفكرية والاجتماعية العربية منذ أكثر من قرن؛ وبصورة أكثر تحديدًا منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر؛ عندما عاد رفاعة الطهطاوى من باريس وبدأ ينشر فكره حول ضرورة إنصاف المرأة باعتبار ذلك ضرورة للتقدم ومواكبة العصر؛ وكان الجدل محتدمًا آنذاك حول حق المرأة العربية فى التعليم ومن ثم الحق فى العمل. وقد أدرك الطهطاوى أهمية الدور الإنتاجى للمرأة؛ وربط بين التعليم والعمل قائلًا: «إن التعليم يساعد المرأة لأن تحدد لنفسها مكانًا فى الحياة؛ يعودها على العمل؛ فالعمل فى الحقيقة يصون المرأة ويدنيها من الفضيلة؛ وإذا كانت بطالة الرجل مدانة فإنها عار كبير بالنسبة للمرأة». ولكن بالرغم من هذا الطرح المتقدم لرفاعة الطهطاوى عن حقوق المرأة منذ أو اخر القرن التاسع عشر؛ والذى سار على دربه بعد ذلك بعض تلامذته فكريًا من أمثال قاسم أمين حتى مطلع القرن العشرين؛ فإن الأمر المؤكد إن قضايا المرأة مازالت موضع جدل ونزاع كبير فى كثير من المجتمعات العربية؛ ومازالت القيم والتقاليد المحافظة تحول دون قدرة تلك المجتمعات على حسم الجدل بالنسبة لقضايا المرأة؛ أو التقدم بخطى حثيثة تجاه إنصافها وإعطائها دورها الحقيقى والطبيعى فى تفاعلات الحياة الحديثة. وقد حاول المستشرقون الغربيون باستمرار ربط تخلف واقع المرأة العربية والإسلامية بالدين الإسلامى؛ واعتبروا أن الدين الإسلامى قد وقف عائقًا أمام تحرير وتقدم المرأة العربية والإسلامية وحصر أدوارها فى أدوار بدائية ومحددة كدعاية البيت وإنجاب الأبناء

دون المشاركة بفاعلية فى الحياة الاجتماعية أو العامة أو كماليات الإنتاج الاقتصادى والتنموى فى المجتمع. فإذا طرح هذا الكلام على علماء الإسلام، وخاصة ذوى الفكر المستنير والعصرى؛ سرعان ما اتهموه بالإجحاف بحق الإسلام واعتبروه دعاوى مغرضة هدفها تشويه الإسلام واتهامه بالمسئولية عن تخلف المسلمين والمجتمعات العربية والإسلامية.

ويتحدث هؤلاء عن حقيقة أن الإسلام سبق الغرب فى إنصاف المرأة والانتصار لحقوقها وأقر لها بحقوقها المالية والاعتقادية والحرية فى اتخاذ قراراتها المصرية كالزواج؛ كما أن الإسلام حرر المرأة وحارب عبودية النساء عبر إدانته لممارسات الرق؛ وفى التكليفات الشرعية فإن النساء على قدم المساواة مع الرجال؛ ناهيك عن تحريم الإسلام لوأد المرأة أو اضطهادها. وكل ذلك صحيح؛ فالإسلام اعتبر أن الله قد خلق المرأة على قدم المساواة مع الرجل فى الحقوق والواجبات والتكليفات الشرعية؛ فالنساء شقائق الرجال، ويشار هنا إلى أن الله تعالى قد خلق الجنين من ستة وأربعين كروموزومًا نصفها من الرجل والنصف الآخر من المرأة بالتساوى بينهما؛ وتتناسب مع قدراته البدنية وإمكاناته العقلية كما حمل المرأة مسئوليات تتناسب مع طبيعتها مثل الحمل والولادة والرضاعة إلى آخر هذه الواجبات الطبيعية التى ولدت بها المرأة. ولكن بالرغم من كل هذه الإضاءات المميزة للإسلام فى إنصاف المرأة؛ فإن واقع المرأة فى المجتمعات العربية قد ظلَّ بعيدًا عن إشراقات الإسلام فى إنصاف المرأة.

الفكر المحافظ كان دائمًا ضد نهضة المرأة؛ وهنا تثار دومًا القضية الخالدة فى المجتمعات العربية والإسلامية حول الفجوة بين قيم ومبادئ الإسلام الحضارية والمستنيرة؛ وبين واقع مجتمعات المسلمين الذى يتسم بكثير من التخلف والتراجع والتدهور الحضارى. لذلك فإن الانتصار لمسألة حقوق المرأة لتصبح واقعًا معاشًا باستمرار؛ لايجب أن يكون وليد محاولات التكيف مع الضغوط الخارجية فى مسألة المرأة؛ ولكن بالاتجاه نحو كيفية حسم المعركة الفكر الاجتماعى المحافظ الذى يحاول الإبقاء على المرأة خلف جدران المنزل من ناحية؛ والفكر الدينى المحافظ الذى يفسر قضايا المرأة وفق مفاهيم وتصورات وتأويلات تحدُّ من قدرة المرأة على ممارسة دورها الاجتماعى والتنموى والإنتاجى والسياسى فى المجتمع من ناحية أخرى. وهنا؛ تظهر مفارقة حقيقية فى المجتمعات العربية والإسلامية؛ فليست العبرة فى إقرار حقوق المرأة عبر النص عليها فى الدساتير والمواثيق والقوانين ولكن فى القدرة على تغيير المفاهيم الاجتماعية السائدة والمتوارثة والقناعات الإيمانية والاعتقادية لدى الناس الناجمة عن فتاوى دينية معينة بشأن النظرة إلى مسألة حقوق المرأة. فما لم تتغير هذه المفاهيم الاجتماعية والقناعات الإيمانية الدينية

بشأن إقرار حقوق المرأة؛ فإن من الصعوبة بمكان أن تنجح الدساتير والقوانين والتشريعات فى تحقيق التقدم الحقيقى المرتجى بشأن حقوق المرأة. وفيما يتعلق بالحقوق الاجتماعية للمرأة ولا سيما حق المرأة فى العمل؛ فلا بدأن يكون ذلك مكفولًا ليس فقط عبر الفتاوى الشرعية؛ والتشريعات القانونية؛ ولكن عبر إدراك حقيقة أن المجتمعات العربية والإسلامية فى ظل التحديات التنموية والاقتصادية الهائلة التى تواجه المجتمعات العاصرة وخاصة فى عصر العولمة؛ لا يمكن لها أن تنمو اقتصاديًّا أو تنهض حضاريًّا إذا ما ظلت نصف القوة الإنتاجية فى المجتمع متمثلة فى المرأة قوة معطَّلة أو مهمشة أو محظورا عليها المشاركة فى الحياة الاقتصادية والإنتاج انطلاقًا من رؤوس فكرية وتصورات اجتماعية محافظة أو متخلفة. فالمشاركة الاقتصادية للمرأة فى مجالات العمل والإنتاج هى ضرورة تنموية لاغنى عنها اقتصادية شائكة وقاسية؛ ووسط واقع اجتماعى متخلف ومعدلات إنتاجية متدنية فى المجتمعات العربية والإسلامية نحتاج فيها إلى كل طاقة إنتاجية من أجل النهوض والتنمية والتقدم.

تنشيط دور المرأة فى الواقع العربى العاصر

كما سبق أن ذكرت أنه من المعروف أن المجتمعات العربية مازالت تسيطر على تركيبتها قيم ومعايير وتقاليد ذكورية. جعلت من الصعب على المرأة أن تمارس دورًا فاعلًا لخلق مجتمع متوازن، فمسألة العلاقة الجاهلية بين الرجل والمرأة مازالت تتأرجح فى الحقيقة بين التراث العربي الجاهلى وبين التراث العربى الإسلامى من جهة؛ وبين التناقض فى التركيبة النفسية لشخصية المرأة العربية من جهة أخرى. فهناك الكثير من التفسيرات الإسلامية العربية الذكورية التى تخطئ كما سبق أن شرحت فى مقدمة هذا الفصل؛ فتنسب للإسلام كثيرًا من السلوكيات والعادات الضارة من أجل الحط من دور المرأة وفاعليتها علما بأن صحيح الإسلام من كل ذلك براء إن فاعلية دور المرأة يكمن فى إعادة صياغة مفهوم علاقتها بالرجل على أساس الاحترام والتقدير المتبادل بينهما؛ بحيث تتحدد فاعلية المرأة من منطلق مكانتها الاجتماعية ودورها الوظيفى المكمل لدور الرجل؛ وليس من واقع العنصر النوعى الذى هو الجنس.

خارطة طريق لتغيير واقع المرأة فى المجتمع العربى

إن واقع المرأة العربية مازال بحاجة إلى دراسة إذا ما أرادت الأنظمة السياسية العربية أن تدفع المرأة إلى مراكز صنع القرار لكونها تمثل نصف المجتمع؛ فعملية الإصلاح السياسى، وخصوصا بعد ثورات الربيع العربى الأخيرة لا يمكن أن تتكامل فى كافة شئون الحياة إلا من خلال الأخذ بالأسس والمنطلقات التالية:

١ ـ احترام ما نصت عليه الدساتير العربية من مبادئ أساسية تضمن المساواة فى الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء سواء فى المشاركة السياسية أو الحياة العامة.

٢ ـ توفير المناخ الملائم لدعم قيم المساواة، وتأكيد روح المواطنة لتحقيق المشاركة الفعلية للمرأة فى السياسة بعيدًا عن كل تمييز.

٣ ـ وضع خطة عمل عربية مشتركة تهدف إلى ترسيخ حقوق المرأة تشريعًا وممارسة؛ بالاعتماد على مناهج واضحة لتطوير الأفكار والعقليات.

٤ ـ تأمين حقوق المرأة العربية فى هياكل وآليات السلطة ومواقع ضع القرار على مختلف المستويات.

٥ ـ توسيع مشاركة المرأة فى الأحزاب السياسية، ومنظمات المجتمع المدنى من خلال دعم الأحزاب والمنظمات.

٦ ـ تنمية قدرات المرأة العربية فى ميدان العمل السياسى عن طريق برامج التطبيق الفكرى والتدريب السياسى والتوعية ضمن برامج الأحزاب مع السعى إلى تبادل التجارب والخبرات بين الأحزاب السياسية العربية.

٧ ـ توجيه وسائل الإعلام المختلفة لتغيير الصورة النمطية للمرأة؛ وتسليط الضوء على النساء كمواطنات فاعلات؛ صاحبات رؤية وتفكير؛ قادرات على تحقيق إنجازات فى جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والأدبية؛ لهذا فإن المنهجية العلمية المطلوبة لعملية الإصلاح يجب أن تحترم أهمية المرأة من خلال التأكيد بأن وصولها إلى هياكل السلطة ومواقع اتخاذ القرار ليست قضية شعارات ترفع؛ ولا مجموعة أفكار يروج لها إعلاميًا فى الندوات والمؤتمرات وو سائل الاتصال المختلفة بل إن أهمية ذلك تمكن فى جدية طرحها وتناولها كقضية لها مساس بعقليات المجتمع المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والسياسية وللوصول إلى مجتمع متحضر ديمقراطى حقيقى لابد كذلك من استخدام آليات ذات معانٍ لا مفردات ترفع كشعار؛ تبدأ بخلق مجتمع مثقف يتعامل بالحوار الناضج الناجح الذى يقود إلى البناء لا الهدم واستخدام الحوار لمعالجة كافة القضايا التى من شأنها إنجاز التحول من مرحلة إلى مرحلة يطمح المجتمع فى الوصول إليها من خلال فكر وعقل إنسانى متفتح ومتطور وقابل للتغير؛ ولهذا فإن ترسيخ ثقافة الحوار لا تبدأ إلا من خلال الإيمان بالثقة بين المتحاورين سواء كان ذلك بين النظام الحاكم ومؤسساته وبين الأفراد (رجالًا ونساء)؛ والجماعات المختلفة.